

المرأة في الكيان الإسلامي



لست بصدّ الدفاع عن إحدى متبنيات المبدأ الإسلامي حين عقدت بحثي هذا حول المرأة في المجتمع أو الكيان الإسلامي لعلمي ابتداءً أنّ "أسلوب الدفاع عاد أداة غير مجده يلتسمها العاجزون والمتبرمون بما حوليهم من تردي وضياع في المجتمعات الغافلة عن الله تعالى في وقت أصبحت فيه مهاجمة المفاهيم الإسلامية، ومعاداتها من أوليات أهداف الصالحين في ركاب القوى - ذات الإمكانيات الهائلة - المعادية للإسلام، والمنتفعين في حياة التيه في صحاري الضياع .

ومن هنا فقد أصبح إشغال أنفسنا - والحالة هذه - بأمور الدفاع عن رسالتنا مسألة - بغض النظر عن عدم جدواها - لا نطيقها نحن كأفراد، ولا تطيقها العُصبة أولو القوّة فيينا، إذ لإعدائنا في كل يوم موضة جديدة، وأسلوب مستحدث في قلب عقيدتنا، والتمادي بالهجوم السافر على مبدئنا العتيق بغية زجنا في معارك جانبية - إذا وضعنا أنفسنا في مستوى الدفاع المجرد - على حساب مهماتنا الأساسية كأُممٌ تصبو لبناء حاضرها، ومستقبلها بناء على ما يقتضيه المنهج الربّاني؟ ومرتكزاته، وأهدافه العليا .

وانطلاقاً من طبيعة هذا الوعي المحدد لحجم المسؤولية التي ينبغي أن يتضطلع بحملها كلّ مسلم واعٍ لأهداف رسالته العظمى، عقدت هذا البحث متوكياً من خالله إبراز الأطار العام لدنيا المرأة في المجتمع الإسلامي - بما ييسر الله تعالى لي متخطيماً - ما استطعت كافة التجاوزات الطافية بروح الحقد، واللاموضوعية التي تتسم بها الدراسات السائرة على الخط الاستعماري، وسالكاً كدليل لذلك أسلوب عرض وجهة النظر الإسلامية في مسألة المرأة والمبررات الأساسية التي وردت من أجلها صيغة النظرية الإسلامية المتباينة .

بيد أنّي - وقبل خوض غمار هذا الحديث - لابدّ من أن أشير ابتداءً، ولو بصورة عابرة إلى العوامل الأساسية التي ساهمت في حجب وجهة النظر الإسلامية في المرأة عن ذهنية الجيل المعاصر، فاتّخذت إطار يكتنفه الغموض، وبلفه ضباب كثيف من التشويه يحول دون رؤيته في إطاره السليم.

مراجعة علمية للملابسات التي رافت موضوع البحث نلمح الأمور الآتية كعوامل أسدلت الستار على واقع النظرية الإسلامية في المرأة:

- إنّ غياب الشريعة الإسلامية عن المسرح الحياتي للإنسان المعاصر قد ساهم في انعدام فهم النظرية الإسلامية الخامسة بدنيا المرأة: في المجتمع الإسلامي من الجيل المعاصر.

2- إنّ الأوضاع الشاذة في العالم الإسلامي المغایرة للنظرية الإسلامية في المرأة والتي ألقت بثقلها على دنيا المسلمين منذ أجيال تعاقبت وغذتها نزعات عشائرية أو أقليمية أو قبلية أو غيرها، وسقوط المرأة تحت وطأة هذه الأوضاع الاجتماعية الشاذة قد أوحى خطأً للغالبية العظمى من أبناء جيلنا المعاصر وقوف الإسلام من المرأة موقف الهاطم لحقوقها، المصادر لكرامتها، والمفتال لأرادتها.

3- توقي جهات مشبوهة، وأقلام مأجورة مرتبطة بشكل أو باخر بالقوى الاستعمارية مهمةً التزييف، والدس على الرسالة، ومدلولاتها الرفيعة بما فيها الجانب المتعلق بموقع المرأة في المجتمع الإسلامي، كأسلوب مشبوه من الأساليب التي تهدف إلى تعميق الهوة بين الإسلام والأجيال المعاصرة لحساب القوى المعادية للإسلام.

هذه أهم العوامل التي ساهمت مجتمعة فيما أرى في تشويه المعالم الأساسية لوجهة النظر الإسلامية في مسألة المرأة، ومكانتها في دنيا المسلمين.

الإسلام يحدد الموقع الطبيعي للمرأة

غير أنّنا لأجل أن نتخطى الصيغ المعادية للإسلام في نظرية المرأة بما فيها من تحاولات، وتصليل لابدّ لنا من أن نستقي وجهة النظر الإسلامية (موضوع البحث) من خلال النصوص الإسلامية الأصلية الواردة بين دفاتي الكتاب العزيز، وسُنة المعموم (من).

على أرْنَنا حين نمارس دور المتتبع لهذه المسألة في ثنايا ينابيعها الصافية ندرك ابتداءً أنّ الرسالة الإسلامية المباركة تدشن موقفها من المرأة بالهجوم السافر المركز على الحضارات، والمناهج الاجتماعية التي تنكرت لهذا المخلوق الكريم، ونصبت له العداء بسبب وعي تبلد، ولم يعد مدركاً لدور المرأة الكبير في معركة بناء الحياة!!

فالرسالة الإسلامية قد وضعت نفسها على الخط الأمامي لمواجهة أعداء المرأة والغافلين عن دورها حين مارست دور المدافع العنيد عن المرأة وحقوقها، وإرادتها وشرفها، في الوقت الذي شنت فيه حملة من التنديد الصارخ بأعداء المرأة، كاشفة عن مظلوميتها، ومعربة كلّ الممارسات المعادية التي سلكت معها عبر الأجيال، والقرون التي غمرها طوفان الجاهلية قبل بزوغ شمس الرسالة الغراء.

وهذه بعض مصاديق الموقف الإسلامي هذا :

1- (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَرْبٍ قُتِلَتْ) (التكوير/ 9-8).

2- (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأَزْيَاضِ طَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدٌ وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مَنْ سُوءَ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُّهُمْ سَكُونٌ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) (النحل/ 58-59).

3 - (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِنْ مُلِاقٍ نَّجْنُونُ زَرْزُقُهُمْ وَإِذَا كُمْ إِنْ فَتَأْهُمْ كَانَ خَطْئًا كَبِيرًا) (الإسراء / 31).

فهذه النصوص الإسلامية وغيرها فوق مما تصوّره من روح المكابرة، والاستعلاء والامتهان لجنس المرأة من قبل الحضارات، والمناهج الاجتماعية التي سبقت بزور شمس الرسالة الإلهية، والتي تجسدت على شكل موقف، ومعاملات، وتصوّرات يعافها العقل السليم، والذوق الرفيع، واندرجت تحت عناوين كالحنة، ومخزية من الولد للبنات، أو التبرم من ولادتها - على الأقل - أو منعها من حقوقها دون الرجل، أو التمييز بينها، وبين الرجل حتى في تناول بعض أنواع الطعام أو مصادرة إرادتها في اختيار زوجها، فضلاً عن تمتّع الرجل بحقّ الزواج بما يشاء من النساء دون النظر إلى مفهوم العدالة أو المساواة، أو نحوهما من مفاهيم إنسانية. أقول: إنّ هذه الممارسات العلمية المجافية لروح التجمع الإنساني السليم في الوقت الذي تشجبها الرسالة الإسلامية بقوّة تعمد من جانبها إلى وضع المنطلقات الأساسية الواضحة لإسقاط كافة القيود والتجازرات على حقوق المرأة الثابتة تحت أقدامها.

وهكذا تكون إطلالة الإسلام الحنيف على دنيا الإنسان بمثابة انعطاف تاريخي هائل لا نظير له في حياة العنصر النسوي على الإطلاق، اُستعيديت لها فيه كرامتها الممتهنة، وحقوقها المهدورة قرونًا طويلة.

فالأولى مرة في تاريخ إنسان هذا الكوكب تُمنح المرأة تأثير الدخول في دنيا الكرامة ويمنح لها حق العيش مع صنوها الرجل جنباً إلى جنب، الأمر الذي يبدو جلياً من خلال المفاهيم العملية التي جسدها الإسلام الحنيف في مجتمعه الكريم، متداولاً بها كلّ سمات الامتهان التي يتّعطاها الرجل في علاقاته مع المرأة، وعما لاّ ما من شأنه على إنتهاء كلّ حالات الشذوذ التي خلقتها المناهج الجاهلية التي كبتت هذا الإنسان.

وهذه بعض المبادرات الحيوية الأصيلة التي حملتها الاطروحة الإسلامية المُتبناة في مسألة المرأة:

1 - (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ رَّبْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهُمَا زَوْجَهُمَا وَبَثَثَ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً) (النساء / 1).

2 - (وَقَهَّرَ رَبُّكَ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِنَّمَا يَبْدُلُغُنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقْرُبْ لَهُمَا أُفْيَ تَدْهَرْهُمَا وَقُولْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَأَخْفِصْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُولْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَّا رَبَّ يَأْنِي صَغِيرًا) (الإسراء / 23-24).

3 - (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمُ أَوْ لِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا وَنَهْنَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ...) (التوبه / 71).

4 - (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَأْمُرُونَ بَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ زَقِيرًا) (النساء / 124).

5 - (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَئِنْجُونْ يَنْدَهُ طَيْبَةً وَلَنَدَجْنَزْ يَنْدَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (النحل / 97).

6 - (وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَرْفُوسِكُمْ أَرْجُونَ وَاجَّا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً) (الروم / 21).

7 - (هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَرْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ) (البقرة / 187).

هذه بعض الأُطر الفكرية التي قضى الإسلام الحنيف من خلالها بردم الهوة السحيقة التي حفرتها المنهاج الجاهليه بين الرجل والمرأة محققاً بذلك أرقى مظاهر التلامم الروحي والمصيري بينهما، حيث أعاد للمرأة اعتبارها ودورها في معركة الحياة لتكون وصونوها الرجل جنباً إلى جنب.

فها هي الشريعة الإسلامية تبُوء العنصر النسوبي مكانه العلي في رحاب المجموعة الإنسانية دون إفراط أو تفريط، كما ترجمته النصوص القرآنية التي عشنا طلالها قبل قليل والتي تصوّر الرجل والمرأة، وقد انبثقاً من مصدر واحد، وجنس واحد، خلافاً للنظرية القديمة التي ترى في المرأة مخلوقاً يرتدي أهاب شيطان.

ثم أنَّ الإسلام بعد ذلك وعلى لسان نصوص كتابه المجيد يعتبر المرأة سكن للرجل الذي يأوي إليه في جو من المودة والدفء والحنان والرحمة حتى يعود الرجل وفقاً لهذه النظرة الواقعية لباساً لها وتعود المرأة لباساً له، فتحتتحقق بذلك أعلى مستويات التلامم، والتراحم والتكافل في جو مفعم بالود والجمال.

والمتتبع - بعد ذلك - لتلك المبادئ والأُطر التشريعية التي حملها القرآن الكريم لتكون أُطروحة المجتمع الإسلامي المُتبناة في قضية المرأة والتي قضى الإسلام من خلالها بتجسيد أرقى مظاهر التلامم الروحي والمصيري بين الرجل والمرأة يدرك بدُعُّد رؤية ووضوح إنَّ المنطلقات الدستورية الإسلامية لم تسلك مجرى الأحداث العفووية اللاواعية التي لا تدري كيف تسير، ولا إلى أين تسير، وإنَّما انطلقت في شكلها ومضمونها من خلال الموصفات البيولوجية التي يتمتع بها كلٌّ من الجنسين، حيث حسب الرسالة الإسلامية لطبيعة التركيب النفسي والعضواني لكلاً العنصرتين حسابه الدقيق الوعي بغية تحضير كلِّ غُبُّين أو حيف ينال أحدهما حين إغفال ذلك التركيب الطبيعي لكليهما لتسند الوظائف، والمسؤوليات، وتمتنح الحقوق لكلِّ منها وفقاً لما يتمتع به من طاقات، وما يمتاز به من إمكانات طبيعية بالشكل الذي يحقق أعلى مستويات الإنتاج، والتلامم والانسجام، والمعطيات أثر في دنيا الإنسان.

وهي مسألة تعدُّ بدائية بالنسبة للرسالة الإسلامية، وإمكاناتها الضخمة لتحقيق ذلك بالدرجة المطلوبة نظراً إلى أنَّ الإسلام - كمنهج ربّاني متكامل - يعلو فوق كلِّ اجتهاد أو تخمين أو تصوّرات، باعتباره صادراً من خالق الإنسان جلَّ وعلا الذي يعلم دواء الإنسان وعلاجه.

وهكذا فإنَّ النظرة الإسلامية المُتبناة في مسألة المرأة تُبنت على أساس استيعابها للجانب التكويني للإنسان بكلِّ شطريه: الرجل والمرأة إِلَّا أن يبدو للمتابع للنظرية الإسلامية في المرأة من خلال نصوصها الأصلية: أنَّ اهتمام الإسلام بالتركيب البيولوجي قبل إقرار منطلقاته النظرية لتحديد مسؤوليات كلِّ من الرجل والمرأة في هذه الحياة تعلية عن كونه عملية واعية لتحديد المواقف، وإنصاف الظروف الموضوعية لتكافؤ الفرص، وتوزيع المهام توزيعاً منسجماً والقابليات الفكرية والاستعدادات البيولوجية، فأزْهَه من جهة أخرى يعكس روح المجتمع الإسلامي في إطاره الفني الرائع.